# مقدمة

قلّما كانت حجة الصفحات التالية أكثر إثارة للجدل بالنسبة لكثير من القراء المعاصرين. فمن بين جميع الموضوعات الساخنة في أميركا اليوم، ليس هناك موضوع محاصر، ومحاط بألغام أرضية لغوية، كمثل مدى حاجة الأطفال إلى أمهاتم وآبائهم، وخاصة إلى أمهاتهم. ففي عصر مليء بمحرمات مرفوضة، يظل هذا الموضوع، بخاصة، غير ممسوس.

يتحدى هذا الكتاب ذلك الحظر الاجتماعي. ويحاول جاهداً أن يلقي الضوء على أحد التغيرات الأساسية في زمننا: التجربة المتواصلة، والضخمة، والتي لا سابق لها في التاريخ، في الانفصال بين الأسرة والطفل، والتي تمرُّ فيها الولايات المتحدة ومعظم المجتمعات الأخرى المتقدمة.

خُصصت مكتبات كاملة سابقاً لمعالجة جانب واحد من هذه التجربة. فطوال عقود حدث تشريح مفصّل لكل ما يتعلق بالمرأة الحديثة المتحررة من القيود الاجتماعية: فرصها، ما يقلقها، خياراتها، حصولها أو عدم حصولها عليها كلها. فمنذ سيمون دي

بوفوار إلى بيتي فريدان، وغيرهما من الكاتبات النسويات بقي ضوء المسرح الإيديولوجي مسلطاً على النساء الراشدات وما يردنه ويحتجن إليه.[1]

ويصح الأمر أيضاً على الأدبيات القوية الأخيرة المضادة للمذهب النسوي.[2] كانت المرأة أيضاً بؤرة ازدهار وجيز مفاجئ في أدبيات شعبية شددت على فوائد الأمهات المربيات.[3] وكانت النساء، حتى في المعالجات الروائية للموضوع، مرة أخرى، الحدث السردي الرئيسي.[4]

بتعبير آخر، ولاستحضار عبارة موحية من الأعوام الماضية، كانت "حروب الأمهات" تدور حول هذا تماماً. وسواء كان احتفائية أو نقدية، يسارية أو يمينية، خيالية أو واقعية، فإن معظم الأدبيات التي تناولت هذه التجربة الاجتماعية الكبيرة يجمعها قاسم نقدي مشترك واحد: إنها تدور كلها حول الجانب الراشد، وخاصة جانب الإناث البالغات، للمنزل الذي يغيب عنه الوالدان.

لكن لم يُنشر سوى القليل عن الجانب الأكثر غموضاً في هذه التجربة الضخمة: وأعني الارتفاع الحاد في مشكلات الأطفال والمراهقين المتزامن مع النزوح المتزايد للراشدين، وخاصة نزوح الأمهات من المنزل. وكما تظهر الصفحات التالية، أن نسأل ماذا يكتشف الدارسون والباحثون عن حالة الشباب الأميركيين يعني أن نستدعي وابلاً من المعلومات التي تسبب الكآبة حول المشكلات

الذهنية، والمشكلات السلوكية، والأمراض المنقولة بواسطة الجنس، والتخلف التربوي، وإلى ما هنالك. وكما قال ويليم دامون، أحد الكتاب الأوائل الذين فهموا الانزلاق في هذه التجربة، في كتابه توقعات أكبر، في 1995: " انخفضت، عملياً، جميع مؤشرات صحة الشباب وسلوكهم، عاماً بعد عام لأكثر من جيل ولم يتحسن أي منها. **الشكوى المتكررة معروفة الآن بحيث أنها تفقد قوتها على الصدم** (التشديد من قِبلنا).[5]

ومثل دامون، علّق بعض المراقبين الآخرين على مظهر أو آخر من هذا التدهور. وقد نوّه كلٌّ من فرانسيس فوكوياما، اليميني في (**التمزق الكبير**)، واليساري روبرت دي. بتنام في (**يلعب الباولنغ وحيداً**) بشكل مستقل، أن هناك عاملاً واحداً يضعفُ "الترابط" في المجتمع الأميركي وهو إعادة توجيه انتباه الراشدين، وخاصة النساء، بعيداً عن المنزل والحارة إلى مكان العمل. وقدَّم عددٌ كبير آخر من الكتاب فكرة سوسيولوجية مختلفة ومهمة: أن ما هو لصالح الراشد الحديث هو غالباً في غير صالح الطفل الحديث: ميدج ديكتر (**قصة عجوز**)، ديفد إلكيند (**الطفل المستعجل**)، آرلي رسل هوتشيلد (**رابط الزمن**)، بربارا ديفو وايتهيد (**كان دان كويل مصيباً**)، كريستينا هوف سومرز (**الحرب ضد الأطفال**)، وكي إس. هيموفيتز (**مستعد أم لا**)، بين آخرين. ربما الأكثر أهمية، هو أن ديفد بلانكنهورن افتتح أرضاً نقدية جديدة في كتابه أميركا التي بلا أب، الصادر في عام 1995، حين لفت الانتباه إلى العلاقات

المتبادلة التجريبية بين الأطفال الذين يعانون من مشكلات ومجموعة فرعية معيّنة من العالم الفارغ من الراشدين، أي الآباء الغائبين.

وهكذا يبدو الزمن مؤاتياً كي نفحص في هذا الكتاب الحقيقتين الراسختين عن عالمنا، وأعني الآباء الغائبين من كلا الجنسين ومشكلات الأطفال المعاصرة من جميع الأنواع، وطرح أسئلة واضحة، وعند الضرورة حادة، عن العلاقة بين الاثنين. لماذا يتناول ملايين من الأطفال الأميركيين ـ تقريباً واحد من كل أربعة أطفال، بحسب التقديرات الأخيرة ـ العقاقير كي يغيروا سلوكهم، ولماذا هناك ملايين منهم قيل إنهم يحتاجون إلى النوع نفسه من السيطرة؟ لنأخذ أعداداً من مكان آخر في ميدان الطب النفسي: لماذا تزداد الكآبة، والقلق، والاضطرابات السلوكية كثيراً بين الأطفال والمراهقين؟ ما الذي يمكن أن يساعدنا في شرح مشكلة صحية رئيسة أخرى مجهولة حتى وقت متأخر: وأعني أن ملايين اليافعين الأميركيين والأوروبيين معرضون الآن لخطر الوزن الزائد والبدانة؟ ماذا يعني انتشار الأمراض المنقولة بواسطة الجنس ـ بعضها غير قابل للعلاج ـ لصحة مراهقي اليوم الحالية والمستقبلية؟ وإذا ما تجاوزنا العلم الاجتماعي، ما الذي يوجد بالضبط في صميم كآبة ثقافة اليافعين الشعبية الحالية، وخاصة ما هو الأحب لهم جميعاً من بين الكل، وأعني موسيقاهم؟

هذه الأسئلة، وأسئلة أخرى مثلها، هي المادة المفصّلة لهذا الكتاب. وآمل أن يصغي القراء الذين من مذاهب سياسية مختلفة إلى الأجوبة. ذلك أنني أعتقد أن كثيراً منا يشعرون مسبقاً أن الوقت قد حان من أجل إثارة دورة من الجدل، وأننا نستطيع أن نفعل لعالمنا هذا، المحلي، الطريف والجديد، ما هو أكثر من الفعل الأخير المخادع للمرأة الحديثة أو الشكوى الأخيرة الجدلية بأن الرجال لا يمكن جعلهم يقومون بحصتهم من العمل المنزلي. ويقارن كثير من الناس، وخاصة الذين هم آباء وأمهات، طفولتهم الخاصة مع طفولة نسلهم ويقلقون حول ما توضحه الصفحات التالية: أن هناك شيئاً جديداً تحت شمسنا المادية المشرقة؛ أن الأطفال ليسوا، في الحقيقة، على ما يرام.

في كتابه الأخير، **مفارقة التقدم**، يسأل جريج إستربوك سؤالاً يبدو أنه كان مؤخراً في أذهان أميركية أخرى: لماذا وفرتنا المادية غير المسبوقة وقفزاتنا الفائقة للعادة في الصحة وطول العمر لم تضاهها أي قفزة ذات صلة في المعنويات؟ وبنحو مشابه، في **أمة واحدة تحت العلاج**، تعالج كريستينا هوف سومرز وسالي ساتل المشكلة نفسها: لماذا يعتقد كثير من الأميركيين، بشكل مخالف للدليل، أنهم في حالة نفسية خطرة؟ وفي عام 2004، أشار باحثون من جامعة ديوك بقيادة كينيث سي. لاند إلى دراسة رئيسة عن سعادة الأطفال بدأت في 1975 واستخدمت ثمانية وعشرين مقياساً مختلفاً.[6] عبروا عن دهشتهم من تدني العلامات

الإجمالية؛ بالفعل، لولا الانخفاض في جرائم اليافعين، لكانت العلامة المركبة لعام 2003 أدنى مما كانت عليه في 1975. وجاءت هذه الأصوات وأصوات أخرى كي تسأل مؤخراً: إذا كانت الأمور تسير بنحو جيد، لماذا لا نشعر جميعاً بأننا أفضل؟

أعتقد أن الجواب على السؤال واضح. الحياة هي أفضل اليوم لكثير من البالغين الأميركيين؛ فهم أكثر حرية في كل شيء، وأكثر حرية من القيود الاجتماعية في خياراتهم الأخلاقية الشخصية، أكثر من أي جيل سبقهم. لكن الحياة ليست أفضل لكثير من الأطفال الأميركيين، مهما كان لديهم من دمى اللعب Game Boys ومهما كان معهم من نقود الجيب من أجل آلات البيع، ومهما كان ظريفاً أن زوجة والدهم الجديدة تمنحهم غرفة نوم نهاية الأسبوع الخاصة بهم في منزله الجديد. وفي الحقيقة، الحياة سيئة بالنسبة لعدد كبير من أطفال اليوم أكثر مما كانت سيئة بالنسبة لآبائهم وأمهاتهم. وفي مكان ما داخل كثيرين منا يعرف البالغون ذلك.

والآن سنتحدث عم ليس هو هذا الكتاب. ليس هذا الكتاب تمريناً في العلم الاجتماعي المنهجي ألفه عالم متخصص. ولا يدعي أنه يغطي بشكل شامل المعايير الكثيرة التي يمكن أن يُحكم من خلالها على سعادة الأطفال والمراهقين. كما نشدت دراسة لاند المشتركة التي ذكرتها سابقاً أن تفعل وكما تحاول أيضاً الكثير من اللوائح الإحصائية التي جمعتها جيوش الباحثين الماضغين

للمعطيات. بدلاً من ذلك، يُفرد هذا الكتاب عدداً من الموضوعات الجوهرية بنحو خاص للوالدين في كل مكان، وبينها الرعاية اليومية، الجنس، الموسيقى، والصحة الجسدية والذهنية، ويستقصي كل موضوع من خلال أدلة متنوعة، من العلم الاجتماعي التقليدي والدراسات الطبية إلى الكتب والعروض التلفزيونية وأشرطة الفيديو الموسيقية ومقاييس أخرى غير تقليدية عن حياة الأطفال الداخلية. لا أدعي أن قائمة الاهتمامات هذه شاملة، ولكنني أعتقد أنها جوهرية بمعنى أن معظم الآباء والأمهات الأميركيين يقلقون من هذه الأمور بالضبط. إنها ما يُمكن أن يُدعى تفاحات الكتاب، وهذا يعني أنه بينما يمكن أن توجد برتقالات أيضاً، فمن خلال التفاحات يجب أن يُحكم على هذه الفصول.

هذا تلخيص واحد لرسالة هذا الكتاب. أما بالنسبة لمسألة الرسول، أنا أم منزلية لأربعة يتألف "عملها الميداني" تقريباً من خمس عشرة سنة وما يقارب ذلك أُمضيتْ حول صناديق الرمل، وفي المدارس، وسيارات النقل (الكربول)، وألعاب البيسبول، وما شابه والتي تم عملها الفكري بين الفينة والأخرى وفي ساعات غريبة في القبو، على بعد حائط من الغسالة وحائط آخر من جهاز نينتندو للألعاب. أنا خريجة من عصبة اللبلاب(*) وكاتبة

(*) اسم شعبي يُطلق على مجموعة من الجامعات في الجزء الشمالي من الولايات المتحدة الأميركية تتظم جامعة هارفرد، وجامعة كولومبيا، وجامعة برينستون، وجامعة ييل وبنسلفانيا وغيرها.

خطابات سابقة في وزارة الخارجية، ولم أحصل على مكتب حقيقي لأكثر من اثني عشر عاماً. وحتى وقت متأخر جداً كانت الأمومة تعني أنني قمت بالقليل من الكتابة بغض النظر عن تأليف مقال بين فينة وأخرى أو مراجعة كتاب. أما اليوم فالأمور مختلفة. ثلاثة من أولادي في المدرسة طول اليوم والأصغر هو على حافتها، وهكذا فهناك المزيد من الوقت للقراءة والكتابة أكثر مما كان متوفراً لسنوات. لدي مربية أطفال تعمل جزئياً هي في الطابق العلوي مع ولدي الأصغر بينما أنا في الأسفل، ولدي زوج يعمل غالباً في المنزل، وأطفال كبار يساعدون كذلك. هكذا تم تأليف هذا الكتاب.

أقول هذا كي أشير إلى أنني أعرف من خلال التجربة الخام أمراً أو اثنين عما مخّصه الكتّاب الآخرون، وأعني، "المقايضات"المالية وغيرها للأمومة، وبينها العقوبات. فالكتابة والتحرير هما هوايتي وقد صارا ممكنين فحسب من خلال تحالف نجوم رمزية مفصلة في صفحة الإقرار بالجميل. لو كانت أي واحدة من هذه النقاط الثابتة بخلاف ما هي، لما كان بالإمكان تأليف هذه الفصول ولا أعني هذا كمثل طرح المؤلفين المعتاد وإنما كحقيقة حرفية. لولا ذلك لما ظهر هذا الكتاب.

أنا نوعاً ما كاتبة كان من المحتمل ألا تظهر. **من تظن هذه المرأة نفسها؟** قال صديق إن الناس سيطرحون هذا التساؤل. **ألا تعرفين**

**في أي كوكب نعيش، كيف هي الحياة الحقيقية؟** حسناً، نعم. أعرف، بخاصة، بعض التيارات المعينة التي تشير إليها هذه الصفحات بالطريقة نفسها التي يعرفها بها قراء آخرون: من خلال التجربة. فقد انفصل والداي حين كنت شابة، وكانت أمي (ممرضة) تعمل خارج المنزل في غالب الأحيان، ورُبيت في الجزء الأكبر من حياتي في أسرة كبيرة ـ وكما تبين، سعيدة ـ مؤلفة من الأخوة والأخوات، والأخوة غير الأشقاء والأخوات غير الشقيقات أحياناً (زوج أمي، الأرمل، كان له أبناء أكبر سناً، معظمهم أطفال كبار كانوا يأتون ويذهبون). بتعبير آخر، لم تكن تجربتي الشخصية من النوع الكارثي الذي يظهر تكراراً في إحصائيات الطلاق، والأم الوحيدة، وما تبقى من سجل إنجاز المنزل المحطم، وهذه إحصاءات تلعب دوراً خطيراً في الصفحات التالية. وهكذا فإن السبب الثاني الذي يجعل هذا الكتاب غير مرجح هو أن تاريخي المنزلي الشخصي يسير بعكس الساعة مخالفاً عناصر حجته.

ولكن لهذا السبب بالضبط أظهر هذه الحقائق: لأنني لو كنت أستطيع أن أضع سيرتي الذاتية جانباً في الحكم على الدليل، لاستطاع ذلك حينئذ قراء هذا الكتاب مهما كان في عهدتهم من تجارب شخصية.

ذلك أنه على عكس معظم الأدبيات التي تركز على البالغين التي لمّحتُ إليها سابقاً، ليست هذه في النهاية، قصة شخصية. إنها

ليست عني، وليست عنك، وليست عن أبناء عمي في نيويورك أو جيرانك في أسفل الشارع. يمكن أن يكتبها أي شخص، متزوجاً أم غير متزوج، والداً أو بدون أطفال، يمتلك الدليل التجريبي نفسه أو غيره. وليس هدف هذه الصفحات أن تسأل ما الذي قررت امرأة واحدة أو رجل أو أسرة فعله. وإنما بالأحرى أن تسأل ما الذي يفعله تراكم ملايين كثيرة من قرارات كهذه لأطفال ومراهقي هذا المجتمع.

فكروا ببضعة أمثلة مأخوذة من الصفحات التالية، بكيف ينتهي هذا التمييز. كان الأمر مختلفاً حين كان بوسع المعلمين الاعتماد على أعداد كبيرة من الآباء كي يساعدوا في العمل التطوعي، لأنه كان هناك ما يكفي من العائلات السليمة والأمهات في المنزل. وصار الأمر شيئاً آخر تماماً. إذا ذكرنا آخر التقارير في **نيويورك تايمز** - بعد الحصول على اثنين أو ثلاثة في أية روضة مفترضة يعتنون بالحدث. إن أي أم أو أب غير متوفرين خلال النهار ليسا مشكلة في البداية؛ إذا ضربنا هذا بعدد كبير (اسأل معلم أي مدرسة ابتدائية)، هذه مشكلة.

غير أن تضاعف تأثيرات الآباء الغائبين يتجاوز الآن المدرس المنعزل الذي يفتقر الآن إلى مساعدين في الرحلات الميدانية واجتماعات مسابقات في تهجية الكلمات. فبعض أحدث المعطيات

حول مشكلات الأطفال الذهنية والسلوكية هي سيئة بشكل مدهش، هذا هو الأمر. فقد انخفضت جرائم المراهقين العنيفة، وهذا أمرٌ عظيم. مع ذلك، وكما يشير الفصل الثاني، لا تشير أي من الشروح حول سبب الانخفاض إلى أي ازدياد عام في الاستقرار الذهني أو غيره لدى الأطفال. في غضون ذلك، تزداد "المشكلات" السلوكية من جميع الأنواع في شريحة سكانية أخرى: الأطفال الصغار، في سن ما قبل المدرسة، وأطفال الروضة. فهم يتعلمون، كما هو واضح، هذا السلوك الضار، على الأقل جزئياً، من بعضهم بعضاً، سواء كان البعض في الرعاية النهارية أم لا، أو يتعلمون الرفس أو الضرب فيما بعد. بتعبير آخر، رغم أن طفلك يمكن ألا يكون المسيئ في أرض الملعب، لأنك علمته، لنقل، أن الآجر ليس من المفترض أن يكون قذائفاً، فإن كثيراً من الأطفال الآخرين لم يتعلموا ذلك الدرس في المنزل، وأن تخلي آبائهم عنهم لا يؤثر بهم فحسب بل بك وبطفلك أيضاً.

فكروا بمثال ثالث: حين يكون هناك ما يكفي من الأمهات، والإخوة، وآخرون بعد المدرسة للسماح بمدخل سهل إلى الملاعب، والحدائق، أو فناء الشخص أو غيره بعد الظهر، يكون الأمر مختلفاً. ففي ذلك العالم، كما نوّه آلن إهرنهالت في **المدينة المفقودة**، كان هناك ما يكفي من "الأعين على الشارع"، ما يكفي من الشبكات غير الرسمية من البالغين، كي يرتبوا الدور خارج المنزل (بين خدمات الأطفال والمراهقين الأخرى) وكانت هذه سمة منتظمة

للحياة بعد المدرسة.[7] لكن الموقف اليوم هو شيء آخر ثانية، ففي حارات فارغة من حضور الآباء حتى الأطفال الأكثر غنى يذهبون إلى المنزل، يغلقون الرتاج ولا يقومون بأي تمرين أكثر نشاطاً من السير من لعبة الفيديو إلى البراد (في الحقيقة، الأطفال الأكثر غنى من المرجح أكثر أن "يعتنوا بأنفسهم" بعد المدرسة أكثر من آخرين في أسفل السلم الاقتصادي). والنتيجة غير المقصودة لذلك العرف الجديد شيء بالكاد نحتاج إلى العلم الاجتماعي من أجله بأية حال، لأن دليل حواسنا جدير بالثقة بما يكفي: الوقت أمام الشاشة يزداد؛ التمرين واللعب خارج المنزل يقلان؛ والأطفال، في الولايات المتحدة، وتقريباً في جميع البلدان المشابهة، هم أكثر سمنة مما كانوا عليه من قبل.

لم تكن أي من هذه النتائج العكسية مقصودة، بالطبع، من البالغين الذين انتهت قراراتهم الفردية إلى الإسهام بها. ولكن ذلك الاختلاف بين الفعل الذي يُنجز والفعل المضاعف - بين القصد المصغر والتأثير الكبير - هو جزء مما يتناوله هذا الكتاب. يطرح سؤالاً لم يُطرح بشكل مرض أو يُجاب عليه حتى الآن في أدبياتنا حول الأسرة الحديثة: هل وصلت الولايات المتحدة مسبقاً إلى "فكرة مفيدة" في مجتمع الأطفال والمراهقين غير المعتنى بهم هذا؟ يسأل أيضاً إن كانت ملايين من القرارات الفردية، المتخذة لملايين من الأسباب الفردية، تدفقت كشلال على جرف مصدر أذانا الأكبر.

سيُقال ـ وقد قيل هذا سابقاً من قِبل النقاد المدّعين قبل إنهائي لكتابتي بشهور ـ أن هذا الكتاب صعب جداً على النساء، وخاصة المرأة الحديثة العاملة. هذا تشخيص خاطئ لفرضيته.

هناك محركان رئيسيان للمنزل الفارغ من الوالدين ونتيجته غير المقصودة. الأول هو الطلاق/ تفشي العلاقة غير الشرعية ـ أو ما يُمكن أن يُدعى بمشكلة الأب الغائب. الثاني ما هو غالباً قفا ذلك التفشي، الأمومة العاملة ـ أو مشكلة الأم العاملة ـ التي هي أحياناً خيار حقيقي وأحياناً لا. إلى هاتين سأضيف قوة أضعف بشكل ضئيل ولكنها لا تزال مهمة: الأسر الأصغر ولكن الموسّعة والمبعثرة جغرافياً، أو ما يُمكن أن يُدعى مشكلة الجدين الغائبين والشقيق. هؤلاء هم حكام الموقد الفارغ، وهم ليسوا قوة اجتماعية واحدة ("النساء العاملات") بل ثلاث.

وتوضح الأدبيات المجموعة حتى الآن عن تجربتنا في الفصل الأسري أمراً واحداً واضحاً: تستحق حريات البالغين المعاصرين، وخاصة المكتسبات التي حصلتها النساء في السوق مدفوعة الأجر، الجهد الذي بُذل من أجلها من وجهة نظر أولئك الذين هم أحرار في الاختيار. أما إذا كانت أيضاً تستحق الجهد الذي بُذل من أجلها من منظور آخر ـ من منظور الأطفال والمراهقين الذين تركهم في الخلف خروج الآباء إلى الحرية ـ فهذا لم يُجب عليه بعد، لأن الأصوات الراشدة التي تهيمن على النقاش كانت مترددة في طرحه.

يحاول هذا الكتاب أن يطرح ذلك السؤال، أن يزيح البالغين عن المسرح في هذه الصفحات ويضع الأطفال والمراهقين في الأمام والمركز بدلاً منهم. إنه محاولة كي أسأل ماذا يُظهر السجل التجريبي وما وراء التجريبي حتى الآن عن هذا العالم الجديد نسبياً وغير المعروف والذي يمضي فيه كثير من الآباء، والأطفال، والأشقاء وقتاً طويلاً أو معظم ساعات يقظتهم منفصلين. فجوهر أميركا الوحيدة في المنزل هو هذا فحسب: في العقود القليلة الماضية، صار عدد متزايد من الأطفال يمضي وقتاً أقل برفقة والديهم أو أقرباء آخرين، وانحدرت إجراءات عديدة خاصة جوهرية لسعادة الأطفال بشكل متزامن فيما كان سيُحكم عليه مرة بأنه انحدار فضائحي. فحجة هذا الكتاب هي أن الرابط بين تينك الحقيقتين لا يمكن أن يُعد مصادفة. في وقت لا يكون فيه تقريباً لنصف الأطفال أب بيولوجي في المنزل في نقطة ما، وتكون أكثر من نصف الأمهات اللواتي لديهن أطفال تحت سن السادسة موظفات، ينبغي التوقف عن التحدث عن مجرد "صلات متبادلة" والبدء بطرح بعض الأسئلة حول العلّة.

✎ ~ ~ ~

openkandil.com